واذا كنا لاحظنا بذور الروح الوطنية في ارضه الرومانتيكية الصلبة، فاننا نلاحظ الى جانبها ايضا روحا دينية قوية يحاول الشاعر أن يستغلها في اثارة حماسة الجماهير وتنبيههم على اخطار الصهيونية التي تهدد الوطن... ومن هنا نقرأ له قصائد عديدة في مناسبات دينية، تعكس دون شك الاهتمام العام في ذلك الوقت بمثل هذه المواسم والأعياد والمناسبات مع ربطها باوضاع الوطن والبلاد. فالشاعر، كما نراه، لم يكن رومانتيكيا هاربا من الحياة ومظالمها وقسوتها، بل على العكس، نراه شاعر الوعي والمصادمة والمقاومة، يستغل كل قدراته وطاقاته في توجيه الجماهير واثارة وعيهم ووطنيتهم وحماستهم. فهو شاعر الكلمة الفنية الفاعلة منذ نعومة أظفاره الرومانتيكية، فكما قرأنا له بعض القصائد الوطنية القومية المتأججة منذ عام ١٩٣٦، فاننا نقرأ له بعض الأناشيد الوطنية في اواخر ديوانه **الأول**، «**الأصائل** والأسحار»[٢٠]، كأنه راح، بوعي، ومنذ وقت مبكر، يفولذ هذه **الأظافر**، حتى لنراه، في ديوانه الثالث، «ابتسام الضحى»، يحيلها سيوفا ومدى حادة يلوح بها في وجوه الطامعين في وطنه.

وقد حاول ان يؤلف بين أسماء دواوينه الثلاثة الأولى التي صدرت حتى عام ١٩٤٦، في هذه العبارة ضمن كلمة الافتتاح «... في سكون **السحر**.. **وابتسام الضحى**.. وروعة الأصيل .. نظمت عقود ــ افراح الربيع»، كأنه كان «يحط عينه»، ويرنو بها الى عنوان ديوانه القادم «ابتسام الضحى» الذي صدر بعد سابقه بسنتين.

وهذا الديوان «ابتسام الضحى»، هو ديوان الوطنية الصريحة المستعلنة، وفيه نلتقي مع البحيري بصوته الفلسطيني الموجوع معبرا عن هموم فلسطين وتطلعات شعبها وآماله. وهو؛ اذا كان في هذا الديوان لا يتخلى عن نبرته الفلسطينية، فانه، كرجل وطني، يعكس روح الوطنية الفلسطينية بوجهها العربي في قسماته القومية والاسلامية، مؤطرا بروح شرقية صميمة واعية يرد من خلالها في قصيدة «الشرق»[٢١] على شاعر الاستعمار «رديارد كيلنغ» الذي قال قولته المشهورة: «الشرق شرق .. **والغرب غرب**.. ولن يلتقيا»[٢٢]. هذه المقولة التي لاقت ردودا عنيفة من كثيرين من مفكري الشرق وادبائه. ويرد البحيري عليه ردا واعيا يستعرض فيه جوانب من حضارة الشرق وامجاده الماضية، ونور هداياته على مر الأزمان، ويبين فضل الشرق على الغرب في نور ضيائه، ويقارن بين العدل الذي نشره العرب المسلمون بين الأمم، وبين ظلم الغربيين وغدرهم الشعوب، يقول:

عم الملا لما ملكنا عدلُنا ... ولقسطنا ظلم الحوادث لانا
وملكتموا فاذا بشائن غدركم ... قد علم الغدر الزمان فلانا[٢٣]

ثم ينتقل الى قضية وطنه التي تؤرقه وتتسلط عليه في كل تفكير، فيقول:

وطني سلمت لنا ودمت مكرما ... وبقيت موئل مجدنا وعلانا
أترى لشرذمة (اليهود) مساكنا ... قرت عيونهمو بها انسانا؟
لا! لن ترى لعدائنا ولو انهم ... بذلوا لك الأرواح... والأبدانا!![٢٤]

وتتجلى روح العروبة في هذا الديوان في كثير من قصائده، ولكننا نود ان نشير هنا الى مقطوعتين فقط، لقصرهما من ناحية، ولاثباتهما الدلالة المقصودة من ناحية اخرى؛ ففي مقطوعة بعنوان «دم العروبة»[٢٥]، يقول:

لئن فرقتنا أكف الخطوب ... ديارا تقاسمها المقتسم